

الشفاء

للأستاذ علي الطنطاوي

... كان مصاباً بالسل ، ولكنه سل غريب قاتل ، لم يكن في الرئة ولا في الأمعاء ، بل كان في النفس ، في الفكر ، فكان يعطل شعوره وتفكيره ، ويخنق حياته ، ويهد كيانه ... كان مصاباً « بداء الحب »

خذت جذوة قريحته ، ونمطت ملكاته كلها ، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته ، وضاق كل شيء في نظره ، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً : فالسرات كلها اختصرت في لقاء من يحب ، والآلام في فراقه ، والواجبات كلها في إرضائه ، والمحرمات كلها في إغضابه ، واختصر كتاب حياته ، وطمس اسمه وعنوانه ، فكان حاشية صغيرة على هامش حياة التي يحبها ، واختصرت الدنيا الطويلة المريضة المليئة بالفضائل والأجساد ، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير ، فكانت كلها هذه المرأة ..

وأقهم عن الطعام واجتواه ، وأصبح خالفاً لا يشتهي ولا يعيل إليه ؛ وإذا اضطُرَّ أكلَ أكل من قزّت نفسه واكتفى بلقيات ما يقمن صلبه ، كأن هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس ، حتى يحطم الجسم ؛ وأصابه الأرق ، فأسمى بيته ليله سهران مسهداً ، وإذا رنق النوم في عينيه ، وغابته حاجة جسده خفق خفقة ، ثم أفاق فزعاً ، يفكر في هذا الانسان ، يخاف أن يطير مع الأنفاس ، أو يسيل مع الدمع ، أو يشرق في بحر عينيه ..

فهزل جسمه وخرت قواه ، وتراخت مفاصله ، وشحبت وجهه ، وآض ساها رازماً ، ضميماً مُحَبَّحَبِيّاً ، ولم يمد يده يعيش إلا على الجواز ، يعيش بذكري أيامه السانوية قبل أن يصيبه هذا السل ، أيام كان ذا جسم قوى ، وفكر ناقب ، وقلب شاعر .. ولم يعد ينتفع بنفسه ، أو ينتفع بها الناس بشيء ، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة ، ولكن لأنسان واحد يحبه ..

بالاستحالة ، وختم إشاراته بتلك النصيحة الذهبية الغالية التي يجب أن يضعها كل باحث وكل مفكر دائماً نصب عينيه . يقول : « إياك أن يكون تلَبُّسك وتبرؤك عن العامة هو أن تنبرى منكراً لكل شيء . فذلك طيش وعجز ، وليس الخرق في تكذيبك ما لم تستبن لك بعدُ جليته دون الخرق في تصديقتك ما لم تقم بين يديك بيبته . بل عليك الاعتصام بمجل التوقف ، وإن أزعجك استنكار ما يُوعاه سمك ما دامت استحالته لم تبرهن لك . والصواب لك أن تُسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ، ما لم يذك عنها قائم البرهان ، واعلم أن في الطبيعة عجائب ، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب ^(١) »

درس ابن سينا نظرية النبوة في البحث الأخير من الأشارات بجاءت درة المقدم وأكليل الكتاب ، وأفاض عليها من فصيح بيان وقوة برهانه ما منحها سلطاناً فوق سلطانها وقوة إلى جانب قوتها ، ويغاب على ظننا أن كل فلاسفة الاسلام أخذوا بها . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء عن ابن باجة وابن طفيل بوضع موقفهما إزاءها ، إلا أن زعمتهما التصوفية ورغبتهما الأكيدة في التوفيق بين الفلاسفة والدين تدفعنا إلى القول بأنهما كانا يلمان بها ويدعون إليها ، أما ابن رشد فقد عرض لها في تهافت التهافت مفنداً لاعتراضات الفزالي ومدافعاً عن الفلاسفة القدامى والمحدثين ، وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الاسلام وحدهم مقبولة في جملتها ، ولا وجه للفزالي في الاعتراض عليها ^(٢) ، وما دمنا نسلم أن السكال الروحي لا يتم إلا باتصال العبد بربه فلا غرابة في أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال . غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وفقاً على الفلاسفة والعلماء ، فإن عامة الناس لا يدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها ^(٣) ، وجدير بنا أن نخطب الناس على قدر عقولهم ، ونقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء

(تبع) إبراهيم يرمى مسرور

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٢

(٢) ابن رشد ، تهافت التهافت ، ١٢٦ وتوابها

(٣) ابن رشد ، منهاج الأئمة ، ٧٣

صاحبنا بمصاه وضمفه وأحاله ... ولغظ ذلك من نفسه ، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه ، وعراه شيء من الاعتداد بالنفس ، وازداد حتى ملأه الشهور بقوته ، تجمل بنظر في عطفيه زهواً وتبهاً ، وجمل يتأمل دخيلته ، ويفكر في نفسه ؛ من هو ؟ وما هذه الحياة التي يحياها ؟ ...

واشتدت الرياح وعزفت ، ثم صفرت صفيراً ، فلم يبال بها ولم يحفلها ، لأن زوبمة أخرى أشد هولاً قد هبت في نفسه ... تنطح هذا الملب وتريد أن تنسفه . . فوقف يفكر : لماذا يضيق حياته بيده ؟ لماذا يعطل فكره وملكاته ؟ أكل ذلك لأنه وجد إنساناً جيلًا ظن أنه يحبه ؟

لكن جميلة أو قبيحة ، ماشأه هو بها ؟ ومن قال إنه لا يمش إلا بها ؟ ماذا كان يصنع قبل أن يعرفها ؟ ألم يكن يمش ؟ ألم تكن حياته أجمل وأحفل بالمطام ، وأملًا بالفضائل ؟ هل كان هذا الحب إلا مرضاً عضالاً هد جسمه وعما مواهبه ، وفل عزيمته ، وأقام بينه وبين الحياة سدًا من لحم ودم ؟

يا للسخف ! أيجم على نفسه بالألم الدائم ، والقلق المستمر ليحظى ذلك الانسان بالسرور والاطمئنان ؟ أوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين ؟ أيجتار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة ؟ ...
يا للنجل ! ألا يرى الدنيا إلا في عيني هذا الانسان ؟ أيقنع من السعادة والمجد والملم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة ؟

وبدأ له الحب كأسخف شيء يكون

وكانت الدنيا قد استطير لها ، وجن جنونها ، وهطت الأمطار سريمة قوية ، تضرب وجهه ... فأحس بالقوة والنشاط ، وجمل ينشق ملء رثيه ، وتبرق عيناه بريق الدزم ، ثم أتى عصاه وشملته ، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب ... وانتفض وضرب الفضاء بقبضيته ، وصاح بحية الفرح : قد شفيت !

ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة . لم تمدحمة عليه ، لأنه لم يمدح !

(بفرار)

على الظنطاري

وهكذا الحب أبدأ : مرض في الجسم ، وضيق في الفكر ، وفرار من حثمة الحياة !

وكان أمس ، وكان يوماً هجهاجاً من أيام الخريف في بندا ، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء مصففة ، تذذع^(١) الأشجار ، وتثير الأوراق ، وتكسر الأغصان ، وتمتد إلى كل شيء في الطبيعة ، فتعيب فيه وتعبث به ، وتدفعه من ههنا ، وههنا ... مبتكرة نسف التراب . وتجمل هذا التيار الناعم اللدقيق الذي يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء ، وينتشر في السماء كمثل السحاب ، يمنع الشمس ، ويحجب الرغبات ، ولا يمنع منه شيء ، فهو يدخل الغرف مهما أحكت إغلاق الباب وضبطت النوافذ ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصيفة محكمة ، ويحش^(٢) في العيون والمناخر والأذنان ، وفي أصول الشمر ، ويمر إلى أجواف الصناديق ، ويطون الخزائن ، وقلوب الساعات ... بل إنه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل في نفسه ...

وكان على صاحبنا أن يندو إلى عمله في بندا ، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها ، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً ، فتعزم وتذر ، وتمطف بمطفه الثخين ، والتحف فوقه بالمطار (الشمع) يتق به المطر ، ولف شملة على عنقه ، ولبس قفازيه ، وأخذ عصاه فتوكأ عليها ؛ وسار الهويني ، لا يطبق حراكاً ، لكثرة ما يحمل من ثياب ، ولطول الطريق ، وشدة الرياح ، وما به من الضعف والاهياء

وكان وحده في طريق (السليخ) ، لم يجد سيارة يركبها ، ولا قوماً يصحبهم ، فنزل ماشياً ، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل ، تعبت به الرياح فتميل يجذوعه وتحرك أغصانه . فتفرقتها ثم نجمها ، فتبدو كأنها هي مراوح ضخمة ، تحركها يد لا ترى ، فتروح بها على وجه الدنيا ، وكانت تظهر أوائها ، وتغيب أواخرها في هذا السحاب الترابي الذي يغطي على كل شيء ، ويصل الأرض بالسما ، فتري الطريق كأنه ساعد إليها ، أو تراها كأنها هابطة إليه ؛ وكانت الرياح زعزعاً شديدة ، تميل بالأشجار وتمصف بالفصون ، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح إلا

(١) أي تميل (٢) قال في القاموس : خشت في المكان دخلت !